هواء مصر في العصور التاريخية

ترجمت من مقالة لحضرة الدكتور غرانت بك

لما استهلّ عصر التاريخ كان الابليز قد رسب في وادي النيل وهبطت سواحل بحر الروم هبوطاً طفيفاً وارتفعت الجهة الجنوبيّة من الجسر[1]. ثم ان الشعوب الّتي دخلت القطر المصري من الانحاء الشماليّة وسكنت فيهِ قبل عصر التاريخ لم تظلّ على استقلالها بل خضعت لشعب آخر[2] اقوى منها دخل القطر المصري من بلاد المشرق من ارض بنت[3] وانشأ فيهِ دولة منظمة الاحكام وذلك سنة ٤٨٠٠ قبل التاريخ المسيحي. وقد ذكر الكاهن منيثو ان اول ملك مِن ملوك هذه الدولة هو الملك مينا ومعنى اسمهِ المقيم او المصّر. ولعلهُ سمي بهِ اشارةً الى جمعهِ القبائل المستقلة وضمها الى شعب واحد. وفي ما ذكرهُ منيثو من اعمال هذا الملك دلالة كبيرة على هواء القطر المصري في تلك العصور

فالشلال عند جبل السلسلة كان قد تهدّم او تحاتّ فانصبت منهُ المياهُ الّتي كانت تجمع فوقهُ فقلّ وقوع الامطار في تلك الجهات. وقبل ان حدث ذلك كان الابليز قد رسب على الاراضي الّتي انحسر عنها ماء النيل بتهدُّم هذا الشلال فلم تزل[4] الى الآن تنتظر ان يروى عطشها حتى يبدو منها من الخصب ما لا يقلّ عن خصب وادي النيل لان الابليز رسب عليها مدة الف او الف واربعمئة سنة. اما شلال اصوان فكان لم يزل اعلى ممّا هو الآن بنحو مئة قدم وكان فرع من النيل يجري من حيث المقالع القديمة ثم

(١) الارض التي يكثر رسوب الرواسب فيها يكثر خسوفها ولذلك فاراضي الجسر المرتفعة عند برزخ السويس خسف جانبها الشمالي في العصور الجيولوجية الحديثة وشخص جانبها الجنوبي

(٢) لم يكن هذان الشعبان قد امتزجا في بدء الدولة الرابعة سنة ٤٠٣٤ قبل الميلاد بدلالة ان الاستاذ بتري شاهد اختلافاً في دفن موتاهما فان موتى الشعب الاول كانوا يدفنون جالسين القرفصاء مثل هنود اميركا ورؤوسهم الى الشمال ووجوههم الى الشرق واما موتى الشعب الثاني فكانوا يدفنون مستلقين. وقد أرسلت عظام هذين الشعبين الى مدرسة الجراحين بمدينة لندن لكي ينظر العلماء فيها

(٣) معنى هذه الكلمة الشرق فيما قالهُ برُغش او الاحمر فيما قالهُ غيرهُ. واطلق هذا الاسم بعد ذلك على جنوبي بلاد العرب وبلاد الصومال. ولا شبهة في ان المصريين الاقدمين كانوا يقولون ان اسلافهم جاءوا القطر المصري من تلك الجهات وكانوا يسمون بلاد العرب الارض المقدسة. والظاهر ان الملك مينا وقومهُ كانوا من الصابئة وكانوا يعبدون الشمس عبادة اطهر من العبادة التي كانت شائعة بين الاقوام الاقدمين من سكان هذا القطر الذين كانوا يعبدون منها معبودات اخرى. ثم دخل القطر المصري شعب آخر مقتفياً خطوات شعب الملك مينا اي انهُ اجتاز بلاد العرب وعبر البحر الاحمر واقام في القطر المصري مدةً ثم اجتاز منهُ الى شمالي سورية والى قرطاجنة وهذا الشعب هو الفينيقيون

يلتقي به شمالي اصوان فتصير اصوان به جزيرة يحيط بها النيل من كل جانب . وكذلك كان الشلال في سنة على ارتفاعه الاول فكانت بلاد النوبة بحيرة كبيرة بسببه . اما الشلالات الاخرى فكانت قد تهدَّمت ولم يبقَ منها الَّا الجنادل ونضبت المياه من البحيرات الَّتي كانت فوقها ولكن المطر كان لم يزل غزيرًا في الاماكن الَّتي لا مطر فيها الآن

والظاهر ان الملك مينا واتباعهُ دخلوا مصر بطريق بلاد العرب والبحر الاحمر واقاموا اولاً في العرابة المدفونة بين اسيوط ولقصر . وكانت العرابة المدفونة في ذلك الحين كما هي الآن على طرف سهل خصيب يروى سيحًا . ولابدَّ من ان الملك مينا زار جبل السلسلة وعلم مقدار النفع الذي يصيب البلاد اذا أُعيد شلالهُ الى حالهِ الاولى ولكنهُ لم يحاول اعادتهُ لسببٍ لا نعلمهُ مع ان مهندسيهِ كانوا على جانب عظيم من المهارة وكانوا قد بنوا لهُ هيكل ابي الهول ونحتوا ابا الهول نفسهُ من صخور الجيزة على ما قالهُ مسبرو . ولكن يظهر ان الملك مينا قصر اعمالهُ على شمالي بلاد مصر . وقد رأى مياه النيل ومياه بحر الروم تتغالب وتتزاحم بين المطريَّة وهيكل ابي الهول فكان النيل يجلب الابايز ويطرحهُ في فم البحر ويلقيهِ على الجزائر الرمليَّة الَّتي فيهِ فنبتت فيها الاعشاب والغابات وتقهقر البحر رويدًا رويدًا تاركًا وراءهُ ضحاضح يسبح فيها التمساح وفرس البحر وتصعد منها العفونات فتفسد الهواء . ولما رأى الملك مينا ذلك عزم على تلافيهِ فبنى سدًّا كبيرًا على بُعد ثلاثين ميلاً من موقع القاهرة الحالي جنوبًا وجعل ماء النيل ينحصر في وسط مسيلهِ لانهُ كان الى ذلك العهد يمتدُّ الى سفح جبال ليبية غربي وادي النيل . ثم اتبع ذلك بسدود اخرى اقامها في اماكن مختلفة لكي يتحكَّم بالنيل وينزح المياه من المستنقعات والضحاضح . اي انهُ شرع في نزح المياه من الوجه البحري وجعلهِ ارضًا زراعيَّة وقد اثَّر ذلك في هواء مصر فقلَّت العفونات منهُ . وبنى مدينة منف في الاراضي الَّتي انكشف عنها ماء النيل . وظلَّت هذه المدينة ولها شيء من الشهرة الى القرون الوسطى

وفيما كان الملك مينا يتابع اعمال الري هجم عليهِ تمساح او فرس من افراس البحر وقتلهُ بعد ان حكم اثنتين وستين سنة . ووجود التمساح وفرس البحر يدلُّ على ان الاقليم كان حارًّا . ولكنهُ لا يستلزم انهُ كان احرَّ مما هو الآن كثيرًا لان عبد اللطيف البغدادي الذي نشأ في القرن الثالث عشر للميلاد قال ان فرس البحر كان كثيرًا في ايامهِ حتى في فرع دمياط . بل قد وجدت واحدة منهُ بقرب المنصورة في ايام محمَّد علي (٤)

(٤) كانت التماسيح تختلف الى المكان المسمى جبل ابي فاضه على مقربي ميل من القاهرة . وقد رأيت عائلة

وغنيٌّ عن البيان ان خلفاء الملك مينا جروا في خطتهِ فزاد انحصار النيل في مجراهُ واتسع نطاق الاراضي الزراعيّة . فأُقيمت مدينة بوبستس بقرب الزقازيق في عهد الدولة الرابعة (سنة ٤٠٣٤ قبل الميلاد) ولكن الجانب الاكبر من الوجه البحري كان الى ذلك العهد خليجًا من بحر الروم الاّ ان الابليز كان يرسب فيهِ عامًا بعد عام ولم تأتِ الدولة السادسة (سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد) حتى صارت بعض الجزائر الرمليّة في هذا الخليج صالحة للسكن فسكنها الناس ونزحوا المياه من المستنقعات الّتي في جوارها وبنيت مدينة تنيس على جزيرة من هذه الجزائر . ولهذه المدينة شأن كبير في تاريخ القطر المصري في عهد الدول التالية

ولما تولّت الدولة الثانية عشرة سنة ٢٥٠٠ قبل المسيح اهتمّ الملك امنمهات وهو السادس من ملوكها باحياء الغامر وري العامر . واشتهر بانشاء السدود والحياض لحفظ مياه النيل ونقش مقياسًا للنيل على صخور سمنة وهي على خمسة واربعين ميلاً من وادي حلفا جنوبًا ونقش بجانبهِ اخبار الفيضان في ايامهِ . ويظهر منها ان مياه الفيضان ارتفعت وقتًا ما ٢٧ قدمًا اكثر من حدّ الارتفاع الاعظم الآن . وعليهِ فشلاّل سمنة لم يكن قد تهدّم حينئذٍ وبلاد النوبة كانت الى ذلك العهد تروى بماء النيل . ويظهر من الكتابات الّتي على تلك الصخور ان ماء النيل تحت سمنة كان يرتفع وقت الفيضان اكثر ممّا يرتفع الآن بعشر اقدام دليلاً على ان شلاّل اصوان تهدّم بعد ذلك وان مياه النيل كانت تغمر جزيرة انس الوجود وقت فيضانهِ

وقد وجد الاستاذ بتري آثار مستعمرة يونانيّة في الصعيد من عهد الدولة الثانية عشرة (سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد) ويستدل منها على ان اهلها كانوا عمّالاً استخدمهم احد فراعنة مصر . ولا جناح على ذلك الملك لان اهالي القطر المصري كانوا قلالاً جدًّا الى ذلك الحين لكن لم ينتصف القرن الثاني للميلاد حتى زاد سكان القطر المصري مليونين عمّا هم عليهِ الآن وذلك في عهد بطليموس الثاني الفلكي دلالة على ان هواء مصر صار صالحًا للحضارة في ذلك الحين ولارتقاء السكان

ولولا انتشار الجهل في الوقت الحاضر وكثرة الاقذار والمستنقعات الّتي حاط

منها سنة ١٨٦٧ اما الان فقد قرضها السباخ ولم يتقرض التمساح وفرس البحر من الوجه البحري بتغير الاقليم بل بتغلب الناس عليها . ويقال مثل ذلك في الاسد الذي كان الزراعنة يصيدونهُ في جوار اهرام الجيزة وقد صادهُ الامبراطور هدريانوس بقرب الاسكندريّة

السكان انفسهم بها ولولا احتياجهم الى حكومة تهتمّ بهم اهتمام الوالد باولادهِ لزاد عددهم زيادة عظيمة جدًّا ولامتلأت افريقية بالمستعمرات المصريّة

ونقص السكان الآن ليس مسبّبًا عن فساد الهواء لان هواء هذا القطر مثل هواء سائر الاقطار ولا عن قلة المواليد لان المواليد كثيرة جدًّا فيهِ ولا عن شيوع المسكرات وكثرة الخصومات لان السكر قليل الشيوع والاهالي مسالمون . بل سببهُ ان الجهل والقذارة يفتكان بالسكان فتكًا ذريعًا فيموت كل الضعاف صغارًا ولا يبقى الاَّ الاقوياء البنية وهؤلاء لا يقوون على مقاومة الامراض اذا اصابتهم . فاقليم هذا القطر من افضل الاقاليم وشعبهُ من اكثر الشعوب ولُدًا واعندالاً ومع ذلك ليس فيهِ من الرجال ما يكفي لخدمة زراعتهِ لكثرة الوفيات بين سكانهِ وهذا ممّا لا يُعذَر اهلهُ عليهِ . ولا يخفى ان تعميم التعليم والتدابير الصحيّة من ألزم الامور لتكثير السكان وان التدابير الصحيّة لا تراعى الاَّ بعد نشر التعليم في البلاد

وكان بين القطر المصري وبلاد الهند واشور علاقة تجاريّة من قديم الزمان ولذلك كان هذا القطر معرَّضًا للامراض الّتي تنتشر في الهند واشور كما هو معرَّض لها الآن . وكان المصريون الاقدمون حريصين جدًّا على الصحة العامة ولكن الامراض الوبائيّة كانت تنتاب بلادهم مرةً بعد اُخرى وتعبث بها ولو لم تنشأ في البلاد نفسها لان الاهالي انفسهم لم يكونوا على ما يرام من جهة التدابير الصحيّة وزد على ذلك انهم كانوا يأسرون كثيرين من الاسرى ويستعبدونهم وهؤلاء لم يكونوا يهتمون بالتدابير الصحيّة ولذلك كانت القذارة كثيرة في تلك الايام ولكنها كانت اقل كثيرًا عما هي الآن . ومهما يكن من ذلك فلا شبهة في ان المصريين الاقدمين كانوا يحترمون النيل كانهُ معبود ويحذرون تدنيسهُ بشيء من الاشياء . فما اعظم الفرق بينهم وبين ابناء هذا العصر الذين يحسبون النيل مصرفًا للاقذار والاوضار فيجرونها اليهِ من كل ناحية

وبقي المطر يقع في الصعيد في ايام الدولة الثانية عشرة ولو كان وقوعهُ فيهِ قليلاً بالنسبة الى ما كان قبلاً . وضاق نطاق البحر الذي كان يغمر الصحراء . وقد تقدَّم ان شلال جبل السلسلة تهدَّم قبل عصر التاريخ ثم لم يحاول احد ارجاعهُ الى ما كان عليهِ الاَّ ان الملك امنمهات الثالث انشأ بحيرة عذبة في صحراء ليبية على مقربة من النيل وكان يجرُّ الماء اليها بالفرع المسمّى الآن بحر يوسف ولما امتلأت هذه البحيرة كان محيطها ٤٥٠ ميلاً وعمقها في بعض جهاتها ٣٥٠ قدمًا وقد سماها اليونان بحيرة موريس ولكنها

تسمَّى بالقلم الهيروغليفي تاشه اي بلاد البحيرة (٥) . وبقيت خزاناً لمياه الفيضان الى ايام الرومانيين لكن اهملت سدودها وقتئذٍ وذهبت مياهها سدًى فجفَّت قبل ايام بلينيوس (سنة سبعين للمسيح) ما عدا بحيرة صغيرة منها وهي الَّتي تسمى الآن بركة قارون او بركة القرون لان شكلها مثل شكل القرنين. وغنيٌّ عن البيان ان هذه البحيرة الَّتي كانت تمتلئ بماء الفيضان عاماً بعد عام مدة ٢٤٠٠ سنة ثم أُهملت وجفَّ اكثرها صارت ارضها من اخصب الاراضي المصريَّة لما رسب فيها من الابليز. واهمها الآن الفيوم وهو من القبطيَّة ومعناهُ البحر فقد وُضع لها هذا الاسم حينما كانت ارضها الزراعيَّة البالغة ٢٣١٢٨٣ فداناً بحراً تموج مياههُ . وهذا البحر قد اثَّر في اقليم البلاد الَّتي حولهُ لانهُ حينما تكثر المياهُ العذبة في البلاد الحارة تكثر الاشجار والاعشاب (٦) وهي تؤثر كثيرًا في درجة الحرارة ومقدار المطر . والفيوم الآن غنيَّة الهواء ولا سيما بقرب البحيرة . ولم يعد المطر يقع في ما حولها (٧)

ومات امنمهات الثالث نحو سنة ٢٢٦٦ قبل الميلاد وخلفهُ ملوك لا شأن لهم من حيث موضوع هذه المقالة الى سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد فان الملك الرابع الذي حكم حينئذٍ وهو من الدولة الثالثة عشرة كتب على مقياس النيل في سمنة ما يستدلُّ منهُ ان شلالها كان لم يزل قائماً . وفي عصر الملك السادس من تلك الدولة اقيمت ابنية جنوبي سمنة في الاماكن الَّتي كانت تغمرها المياهُ حينما كان شلالها قائماً ولذلك فقد تهدَّم هذا الشلال في المدة الَّتي بين هذين الملكين وهي لا تزيد على ست وستين سنة فطغت مياهُ النيل بغتةً حينما تهدَّم ودمَّرت البلاد. ولا بدَّ من انهُ حدث فيها قحط شديد على اثر ذلك (٨) ومن ثم لم تعد مياهُ النيل تغمر بلاد اثيوبيا ولا المطر يقع فيها فصار اكثرها برية

(٥) لم يتعلم اليونانيون اللسان المصري القديم كما يجب وقد سمعوا السكان يسمون هذه البحيرة باسم مري ومعناهُ البحيرة فظنوا ان هذا الاسم هو اسم الملك الذي انشأها فسموها بحيرة موريس

(٦) كان المصريون القدماء اكثر رغبة في زرع الاشجار من اهل هذا العصر فقد جاء في الكتابات المصرية القديمة ان رعمسيس الثالث (وهو من الدولة العشرين التي حكمت سنة ١٢٨٠ قبل الميلاد) زرع الاشجار في كل القطر المصري لكي ينشأ الناس ظلها

(٧) طول بحيرة قارون الآن ٢٥ ميلاً وعرضها سبعة اميال ومتوسط عمقها ٢٨ قدماً وتعلو وتهبط مع النيل مع ان سطحها اوطأ من سطح بحر الروم على الدوام

(٨) اكتشف المستر ولبور على صخر من الصخور التي بقرب اصوان كتابة قديمة يقال فيها انهُ حدث في البلاد مجاعة دامت سبع سنين في ايام ملك من الملوك القديمة . وقد حدثت مجاعة اخرى دامت سبع سنين مبتدئة من سنة ١٠٦٤ للميلاد

فقراء كما هي الآن. وصار سكانها يجدون المشقة الشديدة في رفع ماء النيل لكي يرووا بها ما يزرعونهُ من البقاع الضيقة لسد رمقهم. واظن ان المجاعات غير نادرة الآن في بلادهم. ولذلك فالبلاد الواسعة الممتدة من اسيوط الى بربر التي كانت السماء تمطرها في الازمة الغابرة امست لا مطر فيها. وسيعود مطرها الى حالهِ اذا اعيدت الشلالات الى حالها الاولى وغُمرت الفيوم والصحراء بالمياه[٩]. اما مسألة اعادة الشلالات وبحيرة موريس فقد نظرت الحكومة المصريّة فيها ولم يزل المهندسون ينظرون فيها الى الآن[١٠]

واذا صعدنا في وادي النيل الى بربر حيث العرض ١٧ ½ ٢ درجة شمالاً دخلنا الاقطار التي تقع فيها الامطار الاستوائيّة فينشأ منها النيل الابيض والازرق ويتحدان عند الخرطوم فيتكوّن منهما النيل. وهذه الامطار دوريّة ومنها يحدث فيضان النيل السنوي. واذا زاد هذا الفيضان بضع اقدام عن المتوسط او نقص عنهُ بضع اقدام كانت نتيجة ذلك القحط والامراض. والفرق الآن بين النيل في معظم ارتفاعهِ ومعظم انخفاضهِ نحو اربعين قدماً في اسوان و٢٥ قدماً في القاهرة وبضع اقدام في دمياط ورشيد. اما في الازمنة القديمة حين كانت الامطار غزيرة فكان الفرق اكثر من ذلك. وقد تقدّم ان احياء الوجه البحري تمّ تدريجاً وحتى الآن لم تزل الحكومة تنزح المياه من الاراضي الغامرة لتجفيفها وجعلها صالحة للزراعة. وسيدوم احياء الاراضي ما دام النيل يجلب الابليز من بلاد الحبشة واواسط افريقية

وقد كانت مستنقعات الوجه البحري مخبأً للاشقياء والخوارج ومنشأً للاوبئة او مربضاً لها. والمطر الذي يقع الآن في الوجه البحري الى حد ثلاثين ميلاً عن البحر جنوباً لا يزيد على عشر عقد الى اثنتي عشرة عقدة سنويًا ويساعدهُ انتشار البحيرات على شاطىء بحر الروم وهي بحيرة مريوط بقرب الاسكندريّة ومساحتها ٢٥٠ الف فدان وبحيرة ادكو ومساحتها ١٠٠ الف فدان والبرلس ومساحتها ٣٠٠ الف فدان وابو قير ومساحتها

(٩) ارتأى المسيو ده لسبس ان تحفر ترعة جنوبي تونس يجري فيها ماء البحر المتوسط الى الصحراء لغمرها

(١٠) ارتأى المستر كوب دو بنهوس المهندس الاميركي ان تعاد بحيرة موريس او تخزن مياه الفيضان في وادي الريان ليستمد منها الماء عند انخفاض النيل. وارتأى المسيو ده لامورت الطبيب الفرنسوي ان يعاد شلال جبل السلسلة. وقد اقرّ المهندسون في ادارة الري الآن على اقامة سد كبير بقرب اسوان لخزن مياه النيل واذا تمّ عملهم فالعناية الالهية وحدها قادرة على حفظنا من الغرق اذا استولى الدراويش على هذا السد ولو بضع ساعات. وعلى تمّ لا يتبع اسلوب اهل بابل فانهم كانوا يحجزون ماء الفرات بقناطر بعضها وراء بعض حتى لا يكون منها ضرر ولو استولى عليها العدو

٥٠ الف فدان والمنزلة ومساحتها ٥٠٠ الف فدان ومريوط ومساحتها ١٠٠ الف فدان

واكثر هذه البحيرات حديث وقد كانت ارضها زراعيَّة خصيبة واراضي بحيرة المنزلة كانت مشهورة بخصبها ولكن طغى البحر عليها سنة ٣٣٥ للميلاد وغرق الجانب الشرقي منها ثم غرقها كلها سنة ٥٤٠ وخرب المدن ٱلَّتي كانت مبنيَّة في منخفضاتها ولم يبقَ الاَّ المدن ٱلَّتي كانت على المرتفعات ثم فسد هواء البلاد حولها وكثرت فيها الامراض فهجرها سكانها او انقرضوا منها

وبحيرة مريوط الحاليَّة كانت اصلاً بحيرة صغيرة عذبة المياه محاطة باراضٍ كثيرة الكروم مشهورة بخصبها وجودة هوائها ولكن جُرَّ ماء البحر اليها سنة ١٨٠١ لغرض حربي فطغى على البلاد المجاورة لها وغمرها وفسد هواء ضواحي الاسكندريَّة بسبب ذلك

وفي بداءة التاريخ المسيحي كان محيط بحيرة سربونس ١٢٥ ميلاً وكانت قبلاً اكبر من ذلك اما الآن فضاق نطاقها كثيرًا ولم يعُد لها تأثير في هواء البلاد ٱلَّتي حولها

وبحيرة ابي قير نزحت مياهها حديثاً فصارت ارضاً زراعيَّة وسيجود هواء ما يجاورها بسبب ذلك

ولا يليق بي ان اختم هذه المقالة الاَّ واشير الى تأثير ترعة السويس في هواء هذا القطر . فقد رأينا ان قارة افريقية كانت في العصور الجيولوجيَّة الحديثة مفصولة عن اسيا ولذلك فالفصل بينهما يبرزخ السويس حديث العهد . ولما كان لسان البحر الاحمر بالغاً الى الجسر كان المطر يزيد بسببهِ في الوجه البحري وينوّع الهواء فلمَّا جفَّ انقطع المطر الذي كان متوقفاً عليهِ . وقد ثبت ذلك من انهُ بعد سد البحيرات المرَّة وفتح ترعة السويس سنة ١٨٦٩ زاد وقوع المطر في الوجه البحري .ولاتساع نطاق الري وكثرة غرس الاشجار يد في ذلك كما لا يخفى

بعض الحيوانات المنقرضة

جاء في النشرة الاسبوعيَّة تحت هذا العنوان ما نصهُ

" نبش الدكتور روبوا في جزيرة جابه بقايا حيوان لم يذكر في التاريخ البشري وهيكلهُ يشبه هيكل الاوران اوتان ولعلهُ صنف منهُ " انتهى . اما المكتشف فهو الدكتور دبوى وقد اكتشف البقايا المشار اليها في جزيرة جاوى وثبت انها عظام انسان وقد فصَّلنا ذلك في مقالة تالية موضوعها الحلقة المفقودة